الرواية الإسلامية في العالم الإسلامي غير العربي
السنوات الرهيبة نموذجا

الأستاذ الدكتور حلمي محمد القاعود- مصر

كلية الآداب - جامعة طنطا

-١-

«..مات كثير منا وراحوا في ملف النسيان، راحوا بلا مقابر وبلا شواهد قبور، راحوا ونُسوا في الوديان وفي سفوح الجبال، في الصحارى المقفرة، بعيداً عن الوطن، بعيدا جدا.

كثير منا ينتظر أثناء نفينا في البلدان الأجنبية، المدد والعون من الله تعالى..جرحى، مرضى، فاقدو الأقدام، فاقدو السيقان، أنصاف أجساد... إنهم ينفون من بقي في وطننا القرم؛ أطفالنا، آباءنا بلحاهم البيضاء، أمهاتنا، بناتنا. يملأ الشيوعيون بهم عربات الحيوانات والقطارات وينفونهم إلى غابات سيبيريا البعيدة الموحشة. أمة تئن وهي تنادي قائلة: الوطن..الوطن! وهي تحت سوط العدو. إن العداء الرهيب الذي بدأ عام ١٨٧٢م، يتمه اليوم هؤلاء الثملون، فاقدو الإحساس. خلال مئة وستين عاما انسحقت أمة عظيمة شجاعة أبية، داخل صفائح الموت في غابات سيبيريا السوداء الوحشية، وفي نيران صحاري أوربا وفي البحار الغائرة. ذابت هذه الأمة واختفت. الباقون أبعدوا نفياً عن وطنهم.

أفكر: لماذا اضطهدت روسيا بكل هذا الشكل الذي يخلو من الشرف؛ هذه الأمة التتارية الشجاعة الشريفة. قال لي روسي من أنصار فلاسوف -جنرال حارب الروس بجيش من الروس الذين سقطوا أسرى عند الألمان في الحرب العالمية الثانية- متحضر للغاية، أثناء حديث مثير بيننا في قهوة وارسو عام ١٩٤٢، الكلمات الآتية:

obeikandl.com

- «إن حياتكم هذه التي تتم بالأسر، إنما تعني حماية كل روسيا. أيمكن أن تكون روسيا روسيا بدون القرم وقفقاسيا وتركستان؟ إن روسيا سواء كانت روسيا البيضاء أو روسيا الحمراء ليست ضد أفكاركم الاستقلالية فقط، بل ضد وجودكم نفسه، وأعلم أن روسيا المستقبل، وبعد هذه الحرب، أيا كان لونها، ستكون ضدّكم. ولهذا أقول لله: عليكم أن تنسوا الماضي وعليكم بالتفكير في مستقبلكم....».

تلخص هذه الفقرة المليئة بالشجى البالغ مأساة «القرم» الإسلامية بعد بطل رواية «السنوات الرهيبة»[1] وقد وردت في بداية الفصل الخامس من الرواية، قبل أن يدخل إلى تفاصيل مرحلة الأسر في قبضة القوات الألمانية الغازية لروسيا، ومشاهدها المؤلمة الحزينة.

كثير من القراء لم يسمعوا عن القرم، ولا يعرفون شيئا عن موقعها ولا مأساتها التي تشبه مأساة فلسطين في أكثر من وجه..

فقد سُلبت من القرميين أراضيهم وديارهم وطردوا منها، وأُخذت من الفلسطينيين أراضيهم وديارهم وطردوا منها.

إلى القرم حدثت هجرات يهودية وصقلية وروسية إلى أن استولى الروس على هوية الأرض القرمية، وأعلنوا فيها دولة عام ١٩٤٦. وفي فلسطين حدثت هجرات يهودية إلى أن استولى اليهود بالقوة المسلحة على هوية الأرض الفلسطينية عام ١٩٤٨م.

وإذا كانت فلسطين تقع شمال مصر وخليج العقبة، فإن القرم تقع في شبه جزيرة شمال البحر الأسود، يحيط بها بحر القازاق من الشرق، ويحيط بها البحر الأسود من الجنوب والغرب، وهي الآن تابعة لروسيا الاتحادية.

لقد وصل الإسلام إلى القرم عن طريق التتار، إذ اعتنقته «القبيلة الذهبية» عام ١٣٤٠م، وأسس دولتها «باطوخان» أحد أحفاد جنكيزخان عام ١٢١٨ م، واستقر التتار في المنطقة وعمروها.

(١) ج. ضاغجي، السنوات الرهيبة، ترجمة وتقديم: محمد حرب، ط١، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة - السعودية، ١٤٠٨ هـ/١٩٨٨ م، ٢٩٢ صفحة، قطع كبير.

ظل الصـراع بين روسـيا والقرم قرونا؛ نتيجة أطماع الروس في شـبه جزيرة القرم، واشتد الصراع في عهد البلاشفة، وقد أصدر «لينين» في أبريل عام ١٩١٨م، أمره بالزحف على البلاد الإسلامية التي كانت خاضعة للقياصرة الروس.

وفي أبريل عام ١٩٢٠، صـادرت قوات البلاشفة بلاد القرم، وشددت الحصار عليها، حتى حدثت مجاعة ضـخمة، راح ضـحيتها أكثر من مئة ألف قرمي وفقا لتقرير قرم إلى عصـبة الأمم، وذكرت صـحيفة «أنفيتيـا» الصـادرة في ١٠/٧/١٩٢٢م؛ أن الذين ماتوا بسبب الجوع من التتار القرميين بلغ أكثر من ستين ألفاً!

وفي عـام ١٩٢٨؛ اعترض «ولي إبراهيـم» رئيس حكومـة القرم على قرار «سـتالين» بإقامة دولة يهودية في القرم، كما احتج على تدفق الهجرات اليهودية إلى بلاده، فأصدر «سـتالين» حكما بإعدامه وإعدام أعضـاء حكومته جميعا! ولم يقم وطن لليهود في القرم، ولكن الهجرات اليهودية الكثيفة استقرت فيها.

وفي عـام ١٩٢٩ م؛ أصـدر سـتالين قـرارا بنفي أربعين ألفـا من مسـلمي القرم إلى سيبيريا. ونقص عدد التتار القرميين في بلادهم إلى مئة وخمسين ألفا عام ١٩٢٦م، بعد أن كان عددهم مليونا ونصف مليون عام ١٧٨٢م.

وفي ١٨ مـن مايو عام ١٩٤٤م؛ أصـدر سـتالين قـرار الكارثة بنفي وطـرد كل أتراك القرم من وطنهم إلى صـحراء آسـيا الوسـطى، وتم نقل شـعب بأكمله في عربات السكة الحديد المخصّصـة لنقل الحيوانات إلى صـحراء بلا حدود، بحجة أن القرم تعاونوا مع الألمان في الحرب العالمية الثانية![1].

كاتب الرواية هو: «جنكيز أمين حسـين ضـاغجي»، ولد في قرية قيزيل طاش، تابعة ليالطا عام ١٩٢٠م، سنة المجاعة نتيجة حصار البلاشفة، وهو من تتار القرم (تتاري تركي). شاهد احتـلال الروس لبلاده، وأرض أبيه الفلاح، ورأى تحويل أصـحاب الأراضـي إلى (عبيد) في المزارع التعاونية (الكولخوز) عندما بلغ الثانية عشـرة مـن عمره. كما رأى اعتقال عدد كبير من أهالي قريته فيهم والده وأعمامه، وبموجب قرار حكومي حُرمت بقية أسرته من العمل.

(١) راجع مقدمة الرواية التي كتبها المترجم "محمد حرب" لمزيد من التفاصيل.

وقد تلقى التعليم الابتدائي في مسقط رأسه، والتعليم الإعدادي في مدينة المسجد الأبيض (آق مسجد)، والتحق بمعهد التربية، ولم يكمل الدراسة نظراً لتجنيده في القوات المسلحة الروسية عند قيام الحرب العالمية الثانية. حارب من جهة أوكرانيا ضد الألمان، وأدخله الروس مدرسة الضباط في أوربا، وتخرج فيها برتبة ملازم عام ١٩٤١، وفي العام نفسه أسره الألمان، وتحرر من الأسر في السنوات الأخيرة للحرب، ولجأ إلى الحلفاء، واستقر في إنجلترا مع زوجته البولندية وابنته الوحيدة، وافتتح مطعما في لندن.

وتكاد أحداث روايته «السنوات الرهيبة» تتطابق أحداثها مع أحداث حياته، ويكاد البطل «صادق طوران» يكون «جنكيز ضاغجي» ما يجعل الرواية تدخل تحت مسمّى رواية «السيرة الذاتية».

وتدور رواياته بصفة عامة حول مأساة القرم السليبة، وأحلام الشعب القرمي في العودة. وللكاتب عشر روايات، هي- وفقا لصدورها:

١- السنوات الرهيبة ١٩٥٦، ٢- الرجل الذي فقد وطنه ١٩٥٧، ٣- هم أيضا، كانوا بشراً ١٩٥٨، ٤- سنوات الموت والرعب ١٩٦٢، ٥- هذه الأرض كانت أرضنا ١٩٦٦، ٦- الحياة في الكولخوز ١٩٦٦، ٧- العودة ١٩٦٨، ٨- الشاب تيموجيه ١٩٦٩، ٩- الأطفال المشنوقون على أغصان شجر الزيتون ١٩٧٠، ١٠- الشارع المصاب بالبرد ١٩٧٢.

وقد تأثر «ضاغجي» في مقتبل حياته بعدد من الكتاب الروس والغربيين، منهم: تولستوي، وديستوفسكي، ونكراسوف، وتورجنيف، وجيمس جوي، وبروست، وجون شتاينبك...

وأضفى تعبيره عن الواقع الذي عاشه وخبره، قوة ملموسة على أعماله الروائية، ودفع القارئ إلى الإيمان بها دفعا، وجعل لها أبعاداً عالمية، خاصة في الثورة على الظلم، وبحث الإنسان عن نفسه [1].

٣- السابق، ص١٢ وما بعدها.

-٢-

ونلحظ أن الناشر وضع رواية «السنوات الرهيبة» في سلسلة من «روائع الأدب العالمي»، ولم يشر إلى صفتها الإسلامية، وإن كان قد وضع على غلافها الداخلي عبارة تقول في وصفها: «رواية تصوّر مأساة المسلمين في شبه جزيرة القرم السوفييتية إبان الحرب العالمية الثانية».

والحق أن الرواية تنبض بروح الإسلام وإن كان بطلها- ومثله شعبه- قد حيل بينه وبين الإسلام أرضا وعقيدة، كيانا وتعبيرا على النحو الذي سنراه من خلال مطالعة سيرته ومأساته، أو مأساة قومه.

تتكون الرواية من قسمين:

الأول، أو المدخل يضم تمهيدا وخمسة فصول، تتناول التعريف بالشخصيات الأساسية، أو قل: الشخصية الرئيسية، وهي شخصية السارد أو الراوي «صادق طوران» عبر المذكرات التي يقرؤها علينا الكاتب، وفيها نتعرف على نشأته وتطور حياته منذ الطفولة حتى صار ضابطا يقاتل على جبهة أوكرانيا مع الجيش الأحمر ضد الألمان في الحرب العالمية الثانية.

والقسم الآخر يتناول حياة البطل بعد أسره لدى القوات الألمانية حتى تحرره بعد انتهاء الحرب، وهروبه إلى الحلفاء ثم إلى إيطاليا، مروراً بتشكيل جيش التركستان الذي يتكون من الأسرى التتار لمحاربة الروس بجانب الألمان.

وتبدأ الرواية بتمهيد يتحدث عن مذكرات «صادق طوران» وقصتها، وقراءتها بقلب يحترق على ما فيها من شخصيات وأحداث وآلام.

إن التمهيد أو المدخل يعطينا دلالة عن طبيعة الشخصية، بل الرواية وأعماقها، وتبدأ بداية حركية مفعمة بأحداث ستأتي وسيكون تأثيرها بالغا؛ مع أنها تجيء في إطار عفوي تلقائي:

« اسمي صادق، صادق طوران. وأنت ما اسمك؟

أجبته بقولي:

obeikandl.com

- اسمي جنيكز..

كانت شخصية تماثل شخصية ذات أبعاد عريضة ومغزى عميق، كان من السهل قراءة آثار الماضي العميقة مسطورة على وجهه. وفي عينيه مسحة ألم مختلفة عن الأعوام الماضية. كان – بمنكبيه العريضين وصدره الفتي- يترك في الإنسان شعورا بأنه يحمل على كاهله عبء حياة ثقيلة شديدة الوطأة. كان يبدو كمن يبكي بكاء حاداً وقد ألقى بنفسه على كرسي، أمام باب الشاعر وقد أخذ رأسه بين يديه... فكرت فيما بيني وبين نفسي فيما إذا كنت سأستطيع حمله على التكلم والإفصاح عن ألمه، فإذا فعل هذا فقد يستريح. وبينما كنت أقترب منه، قلت له بصوت في غاية الهدوء:

- يا صادق، هل تذكر أحمد الفلاح، زميلنا الذي كان يؤدي الخدمة العسكرية معنا؟ لم يرفع صادق رأسه، لكنه قال:

- أحمد؟ المرحوم أحمد؟! أمن المعقول أن أنساه؟ لا أنسى أيضا، أننا دفناه بالقرب من برفومايسكي، وكانت إصابة أحمد بالغة، وجرحه غائراً عميقاً، ولم ينج منه»[1].

ويشير الكاتب إلى أن ذكرى «أحمد» هذه حرّكت من «صادق طوران» قديم الذكريات، ودفعته إلى الكلام دفعاً، فينبئنا عن المعارك والإصابات، ودفن الموتى، وفواجع الحرب ومآسيها... ويعد «جنيكز» صديقه في الرواية، بحكاية ما رأى حينما يزوره في الصباح. ولكن جنيكز يفاجأ بأن صاحبه «صادق» قد هاجر إلى الأرجنتين ومات هناك، بعد أن دون في لفافة من الأوراق قصة حياته الحافلة بالأسى والفواجع!

الرواية إذن تأخذ بناءً خاصاً، وفقا لسياق المذكرات التي يسجل فيها الراوي مكان ما يكتبه وزمانه، وهذا يحرّره من البناء التقليدي، ونظامه الصارم، وخاصة فيما يتعلق بترتيب الأحداث. فيمكن أن يتجاوز أحداث فترات زمنية طويلة، ثم يعود إليها، ويستخدم الرسائل وسيلة من وسائل العودة إلى الماضي من خلال الحاضر، أو الإشارة من خلالها إلى المستقبل، إنه يوظفها عبر البناء بطريقة بسيطة عفوية تضمن للحكاية صدقية ملحوظة تقنع القارئ بما يحكيه ويرويه.

(١) الرواية، ص ١٥.

ونلحظ – أيضا – أن الرواية تتطابق في خطوطها الرئيسية مع حياة الكاتب «جنيكز ضاغجي» مع أنه يحاول في التمهيد أن يموّه، وأن يبعد نفسه عن دائرة الأحداث بوصفه متلقيّاً لها فقط، حيث يستمع لصادق طوران صديقه التتري القرمي، أو يقرأ مذكراته التي هزّته وأرعبته وأفزعته إحدى عباراتها التي تقول: «أدركنا يا رب! فإننا ننتهي.. إننا إلى زوال» وهي عبارة تشير إلى ما كان ينتظر شعب القرم المظلوم؛ الذي سحقه البلاشفة وشردوه في أرجاء الأرض.

إن هذه المذكرات التي كتبها «صادق طوران» ما هي إلا حياة «جنيكز ضاغجي».. هي سيرته الذاتية بكل تأكيد، وهي روايته الأولى التي يسجل فيها الكاتب عادة حياة روائية موازية لحياته الواقعية، أو يستعير كثيرا من حوادث حياته الواقعية في عمله الروائي.. إن تمويه جنيكز ضاغجي، وصل إلى حدّ الإقناع – دون أن يدري– بأنه هو بطل الرواية، وذلك عندما سجل بيت شعر تركي يقول: «أنا تركي. وأنا عدوك، حتى لو لم يبق من أمتي إلا أنا فقط»، وهذه هي روح «صادق طوران» عبر الرواية، حيث أتبع ذلك بوصف صادق طوران: « كنت أقول لنفسي: إن صادقا رجل ملّ دنياه، وخاف البشر. كنت أفكر في صادق بينما كان خياله يتراءى لي أمام ناظريّ. صادق.. هذا الرجل الخائف، ماذا يمكنه أن يفعله بعد هذا؟! وأنا...؟! ماذا سيكون مصيري؟ لست أنا فقط، بل نحن كلنا...نجد الذين خرجنا من هذه الحرب، أحياء. كيف كنا؟ وماذا سنكون؟ ما الذي كان في أيدينا أن نعمله؟ وماذا ستكون نهايتنا؟»[1].

إن جنيكز يختم تمهيده لروايته بقوله على لسان السارد عن مذكرات صادق طوران:

«أعيد قراءتها باكياً بلوعة وحرقة من أعماقي» ولن يكون هذا البكاء الملتاع الحارق، إلا بكاء جنيكز ضاغجي على نفسه، أو على صادق طوران الذي هو صورة منه، وعلى وطنه القرم السليب!

(١) السابق، ص ١٦، وانظر صفحة ٤٩، حيث يصف "صادق طوران نفسه بأنه كاتب، وأن ما يكتبه لا يثير انتباه أحد، وأنه يكتب ليخلد أبطال القرم الذين طواهم الثرى.

-٣-

يتداخل الزمان والمكان في الرواية، فالمكان هنا هو هذا البطل الحقيقي، مع أننا نتعامل في الرواية مع بطل من لحم ودم، هو «صادق طوران» ولكنه يعيش بمشاعره في وطنه الذي تحوّل إلى أطلال وطن، وذكريات وطن، تحيا في دمه، وتسافر مع ماضيه وحاضره، ولا يفتأ يذكرها في قتاله ضد الألمان، ومن خلال أسره بمعرفتهم، وفي واقعه المعيش بعد نجاته من الأسر، وهروبه من الروس والألمان والأمريكان جميعا.

والزمان التاريخي الذي تتحرك فيه أحداث الرواية، هذا زمن الحرب العالمية الثانية، التي تشهد ضياع «القرم» كلها، ونقل ما تبقى من شعبها المسلم إلى صحراء آسيا الوسطى عقابا لهم على جريمة المطالبة بتحرير أراضيهم، وإن كان العدو قد رآها انضماما للألمان وخيانة له.

الحرب الثانية إذن هي الزمن التاريخي الذي دارت فيه الأحداث الرئيسية حيث كان «صادق طوران» يحارب على جبهة أوكرانيا، ويتعرض للأسر والعذاب ورؤية الموتى يتساقطون بأيدي الألمان أو أيدي الروس الغادرة. ويتمدد هذا الزمان ليغوص في عمق تاريخ شخصية صادق طوران منذ مولده، ومشاهدة بلاده تسقط في قبضة البلاشفة، إنه لم يفقد أباه وأهله وأحبابه فحسب!، بل يرى عقيدته تتآكل بالإحلال الإلحادي، وتسقط مآذن بلاده أمام عينيه.. بل إنه يرى بلاده كلها تغادر أهلها وتتركهم في التيه والغربة والعذاب... ومع ذلك فإن سارد الرواية يكثف لنا هذا الزمن التاريخي في فترات قليلة هي زمن كتابة صادق طوران مذكراته عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية.. من أوائل عام ١٩٤٦ إلى ١٩٤٦/٨/١٠م. كتبها وهو هارب في روما، بعد أن توقف قصف المدافع والطائرات، ثم لجوئه إلى إيطاليا، وسكون الخوف في قلبه.. وهو خوف لم يُجْدِ معه الطبيب النفسي بعلمه وأدويته، ولم يعرف أسبابه، مع أنه في الحرب لم يخف أبدا في ظل الموت الذي كانت «عينه في عينه»!

إن الزمان يدخل في المكان، والعكس صحيح، فمرحلة الحرب الثانية، هي مرحلة ضياع القرم، وضياع القرم هو ذكرى الحرب الثانية. ويكثف السارد عن ذلك منذ بداية

مذكراته حيث يحدد الزمن التاريخي أو الخارجي بعبارات هزيلة مؤلمة؛ لم ير فيها بلاده مرة أخرى لأسباب يذكرها ضمنا، أو يذكر بعضها تحديداً:

« غادرت بلادي آخر مرة في خريف عام ١٩٤٢، كان فراق وطني أمراً صعباً ومرّاً. كنت أحسّ بأنني لن أستطيع العودة إليه مرة أخرى. في المحطة كانت أمي. وكان أبي والأقارب قد حضروا لوداعي. وكنت أنظر إليهم من مقصورتي بالقطار، وأفكر في أيامي الحلوة وأيامي المرة أيضاً. كانت هذه هي المرة الأخيرة التي أراهم فيها... وكان صادق طوران ينظر وهو في القطار إلى أرضه السليبة تشدو بأنشودة السنين الدامية، وكان يدعو الله قائلا:

- يا رب لا تحرمنا من هذه الأرض. نريد أن نبقى فيها، ونعيش فيها، حتى لو نحيا جياعا عراة، حتى إذا متنا أيضاً، فلنمت في هذه الأرض. إنها وطني يا ربنا....»[1].

هذه البداية الباكية تطورت إلى بكاء دائم، وحزن مقيم على الوطن، المكان الذي لم يعد حتى الآن، وحمله صادق طوران على ظهره حتى وصل إلى الأرجنتين، ليعمل مع آخرين في استصلاح قطعة أرض، ولكنه مات هناك، دون أن يتحقق حلمه بالعودة إلى بلاده السليبة.

وتظل القرم في الزمان الماضي الذي يشد إليه صادق طوران كثيرا، حيث يعود إلى طفولته الوديعة، وذكرياته مع أقرانه الأطفال وألعابهم على روابيها الجميلة، ورؤية العساكر الروس المسلحين الذين يقطعون عليه وعلى رفاقه الفرح باللعب، ويثيرون الفزع في قلوب الناس، ويقتادون أباه وأقاربه إلى السجن فتتحول اللقمة الوحيدة إلى سمّ زعاف في أمعائه!

ويستعيد صادق طوران القرم في الزمان المستقبل حلماً يسعى إلى تحقيقه على أرضه بالعودة إليها، واستئناف الحياة أو الموت فوقها، مع أنه ذهب إلى أوروبا، ويالطا، وجبهة أوكرانيا، والعديد من المدن والمواقع العسكرية في روسيا، وانتقل أسيرا إلى معسكرات

(١) الرواية، ص ١٩.

الألمـان، وهـرب إلى الحلفاء، ثـم إيطاليا، وأخـيرا إلى الأرجنتين حيث ثوى جسـده بعد المـوت..! كل هذه الأماكن كانت تتـوارى أمـام القرم..الوطن،والغربة،والهوية،والتاريخ، والمستقبل...

الكاتب/ السـارد صـادق طوران ينجح دائما في تفجير الدمع مـن عيوننا، وهو يحكي عـن بلاده! وكل ذلك في إطار زمني قصـير ومحـدد وهو الزمن الفنـي الذي يملأ مئات الصفحات، ونستشعر بعد الفراغ من قراءة الرواية أن الرجل لديه الكثير مما يريد قوله، ولكنه سـكت عنه، ولعله تكلم عنه فيما بعد في بقية الروايات العشـر التي لم تصـل إلينا بعد، أو لم تصل إليّ على الأقل!.

-٤-

- « يا صادق، أنت ممنوع من دخول المدرسة بعد اليوم، لأن...هل فهمت يا صادق؟

قلت لها: فهمت! »[١].

كانت المعلمة «صـفية» تشـير إلى أن والد صـادق، تم القبض عليه من جانب السـلطة الروسـية الاسـتعمارية، ومعنى القبض على رب الأسـرة حرمانها مـن التعليم والعمل، ووضعها في خانة المنبوذين.

«بعد تمهيد حلّ بالقرية بعصـبة القازاقيين، وقد أخذوا معهم عند مغادرتهم القرية؛ نصف أهلها، وكانت معلمتنا «صفية» من بين هؤلاء»[٢].

« مـررت فيمـا بعـد، وكان ذلـك في شـتاء ١٩٢٩ بقريتنا، قبـل ذهابـي إلى الخدمة العسـكرية، فوجدت بيتنا في القرية تسـكنه عائلة روسـية فرونجلية، وقد سقطت أشجار البلوط التي كانت شـامخة أمام بيتنا، والسـلم الخشـبي قد انكسـر، وكانت هذه العائلة الروسية تستخدم عتبة بابنا بديلاً لخشب الوقود»[٣].

(١) الرواية، ص ٢٢.

(٢) الرواية، ص ٢٢.

(٣) الرواية، ص ٢٥.

obeikandl.com

هكذا يسرد صادق طوران المشاهد الأولى الأساسية في حياته، حيث العدوّ، يعمل باستمرار ووحشية لاستئصال أهل القرم، وتجريدهم من أبسط حقوق الحياة. ولم يكن أحد هنا يستطيع أن يصنع شيئاً لأي أحد. كان «محمد آغا» صديق العائلة وقريبها يتردد عليهم (عائلة طوران) يسأل عنهم، بقصد الاطمئنان، لكنه لم يكن يستطيع أن يعمل شيئاً غير الدعاء. كان يدعو الله لهم ويقول: ساعدكم الله وكان في عونكم!.

ولم تكن عائلة صادق تشكو.. فعلى فرضية أنها تريد الشكوى، فلمن تشكو؟وممّن؟

إن أهل القرم ليست لديهم القدرة على محاربة عدوّهم المسلح الذي أسرهم وقذف بهم من بيوتهم ووطنهم وديارهم، وهم على حال من البرد والجوع. ماذا في أيديهم غير المعاناة، والدعاء أن يكون الله في عونهم؟

قال والد صادق له ذات يوم:

- «أريدك أن تتعلم يا صادق. أريد لك أن تدرس وتصبح رجلاً. أن تعلم أنني في حاجة إليك، ولكن لست أنا فقط المحتاج إليك. كل الناس ينظرون إلى الشباب مثلك وكلهم أمل. كل الناس في حاجة إليكم»[1].

هذه هي الأجواء التي نشأ فيها «صادق طوران» وهذا هو الأمل الذي يعلقه أبوه، وتعلقه الأمة على أمثاله من شباب القرم كي يتعلموا ويحرروا وطنهم الأسير. وفي تضاعيف الرواية يخبرنا صادق عن الظروف اللاحقة التي مر بها، فقد راح يتعلم ويحصّل دروسه بعد منعه من التعليم في مسقط رأسه، ثم عمل في جريدة «العالم الجديد» وأعطى راتبه لوالده كي يحصل عائلته على بيت جديد نظير هذا الراتب الذي سيدفعونه لموظفي البلدية، ويخبرنا عن توقف النفي الجماعي بعض الوقت، واختفاء صفوة المجتمع القرمي: الأطباء، والأساتذة، والمعلمين، والشيوخ، وأئمة المساجد، اختفاءً مفاجئاً مريباً، وتحوّلت الحدائق إلى ممتلكات للكولخوز، حيث يجمع الفلاح محصوله وفاكهته ويسلمها للحكومة، ثم يذهب ويقف في الصف من أجل كيلو من القمح. وينتظر حتى منتصف الليل، إلى أن يحين دوره أمام أبواب الجمعية التعاونية...

(١) الرواية، ص ٢٩.

لم يستمر صادق طويلا في صحيفة «العالم الجديد» ولكنه اتجه مع صديقه سليمان إلى مدرسة القيادة الوسطى العسكرية في أوربا. كان ذلك في شتاء ١٩٣٨، وهناك كان التلقين السياسي أكثر من التدريبات العسكرية ونظريات الحرب. وفي ربيع ١٩٤٠، انتقلت المدرسة العسكرية من أوربا إلى مكان قريب من الحدود الرومانية. تخرج صادق وسليمان من مدرسة القيادة الوسطى برتبة «ملازم ثان»، وعين بالكتيبة ٩٤، من الفرقة السابعة والخمسين. ذهب صادق إلى قيادة الفصيلة الثانية، وسليمان إلى قيادة الفصيلة الثالثة.

وبعد سنتين من التدريب والعمل العسكري، في ربيع ١٩٤١، رفضت القيادة طلباً للإجازة من صادق. وكان اتصاله بأهله عن طريق الرسائل البريدية التي يكتبها إليهم ويردّ عليها أخوه «بكر».

وتتعرض روسيا لهجوم ألمانيا الفاشية. كان الجيش الروسي ضعيفا، قليل الدبابات، فانهارت الجبهات الروسية أمام تقدم الألمان. وكانت أول إصابة لصادق في المعارك جرحاً واضحاً على خده، لا يدري كيف حدث ولا يحسّ بوجع منه.

وفي أجواء الهزيمة العسكرية الروسية، بدأ الغضب على الروس يعبرّ عن نفسه من مختلف القوميات المظلومة التي يحكمها الروس. تجرأ الشباب على الكلام بحرية. أيقظت الحرب على ما يبدو الحرية الكامنة في قلوبهم، وكان منظر الخسائر والجنود الأسرى الروس مروّعا. إن هذه الأمة- أرادت أم لم ترد- لابد أنها ولدت وفي قلبها الخيانة والظلم. ويفكر صادق فيما بينه وبين نفسه ويقول: ماذا لو ييسر الله دخول الألمان موسكو في مدى أسبوعين...

وأخذ الجنرالات ينضمون إلى العدو! والجنود يسخرون من المسؤولين السياسيين في الجيش! أيمكن أن يحارب جنود مثل واسيليف وجريشة؟ لو وجد هؤلاء الفرصة المناسبة لابد أن يهربوا...السيطرة البلشفية تسقط أمام الأعين!

الجنرال مكسيمنكو ينضم مع مئة وخمسين من الجنود إلى الألمان... وتزداد الخسائر. ويعود صادق مع سبعة جنود فقط من فصيلته بعد أن كانوا ٢٨، الآخرون قتلوا. وتم تدمير دبابات الفصيلة، الهزيمة – ترفرف - في كل مكان، ويلحظ صادق أن الروس كانوا يدفعون أبناء الأعراق غير الروسية إلى مقدمة الجيوش ويضحون بهم.

يموت سليمان زميل صادق. قتله الجنود الروس وهم ينسحبون ليرغموه على التوقف عن الدفاع، فيقسم بعض الجنود المسلمين ألا يحاربوا من أجل الروس الكفار. وسقطت «كرانوي» وقد ظل الدفاع عنها كما يقول صادق في مذكراته أدمى فاجعة في الحرب!

رأى صادق جنديا تتريّاً من قازان وقد حضره الموت فقال له الجندي:

«لا تحارب..نحن يا أخي دماء مسفوكة في سبيل هذه الأمة الظالمة..أنا من قازان، أنا تتاري من التتار. تعلمت وأصبحت طبيبا. اسقني ماء يا أخي. في عام ١٩٣٥ أخذوني، أبعدوني عن زوجتي وطفلي، وأحبهما أكثر من روحي، حبسوني، ألقوني في السجن، لماذا؟ لا أعلم، هلهلوني في سجون جي.ب.يو، وقبل تهديدي أخذوني من السجن وأحضروني هنا، اخترقت رصاصتان ألمانيّتان بطني، أعرف أن الطبيب لن يفيدني يا أخي! استمع إلى ما أقوله لك! دعك من الحرب ولا تحارب»[١].

في الوقت نفسه، كانت هناك منظمة سرية تتابع الجنود الروس. والجنود يتحينون الفرص للهرب من الجيش إلى جانب العدوّ قبل أن يموتوا برصاص أمتهم!

يعبر ضابط روسي عن الهزيمة وهول ما جرى للجيش الروسي قائلاً بصوت أجشّ متوحّش:

«- اخترقونا! لم تعد هناك جبهة. داسوا على أجسادنا بدباباتهم! حطموا عظامنا!

وخرّ واقفاً على الأرض وأخذ يئن ويقول:

- آه يا أمي! ساروا فوق أجسادنا»[٢].

كانت الدبابات عتيقة وغير مؤثرة. يا لها من دبابات: ب ٢٧، ب ٢٨، المدافع كلها قديمة..من عهد القيصر نيقولا. ومع ذلك كانت أفضل نسبيا من الدبابات ويمكن الحرب بها...إنهم يسمّون الدبابات في روسيا بتوابيت المدفعيين! إنها أسلحة جيش مهزوم، كان لابد أن ينهزم!

(١) الرواية، ص ١٠٨.

(٢) الرواية، ص ١١٥.

وتمهّد الهزيمة الساحقة على جبهة أوكرانيا لأشياء كثيرة، منها أسر صادق طوران» وكثير من التركستان على تنوع مواطنهم، وفي الأسر كان العذاب الرهيب والبؤس القاتل والجوع المدمّر والوحشية البشرية! وقد تجرع صادق طوران ذلّ الأسر وقهره البشع، وإن كان ذلك لم يحل بينه وبين تذكر بلاده الجميلة والتفكير فيها، وفي كل حديقة من حدائق قريته، بل كل شجرة، وكل بيت، وكل عين ماء. وترتبط البلاد عادة لدى صادق طوران بوجه أمه بكل جماله وبكل رحمته، إنه لا ينسى عينيها اللتين تشبهان ياسمنتين وهي تنظر بهما إليه. إنه يحن إلى لمس شعرها الأبيض والارتماء على صدرها أو ضغط رأسها على صدره. إنها تختفي أحيانا من أمام ناظريه، ولكنه يحاول استرجاعها، ولكن صوت الألماني الرهيب يقطع هذه المحاولة ويندس بين الأب وأمه، وهو يقول:

« بولشفيك! روسكي.. روسكي! ».

وفي الأسر رأى صادق طوران «نماذج عديدة للوحشية الإنسانية، التي تتخلى عن كل قيمة خلقية، لحساب قيمة واحدة هي الصراع الوحشي. فالألمان يجعلون الأسرى يحفرون حفرات عميقة، ثم يأخذون «القماسرة» – القادة الروس- ويجعلونهم أمامها على ركبهم، ويطلقون عليهم الرصاص. ناهيك عن إذلالهم للضباط والجنود في المكان الذي يجرونهم فيه، وفي الطعام، والشراب، ثم تعذيبهم، وقتل من يريدون عشوائيا أو لأسباب تافهة، والسطو على الأسرى لسلبهم أيّ شيء له قيمة، كما فعلوا مع صادق حيث استولوا على حذائه الجديد، وكان البولنديون يقومون بهذه المهمة داخل معسكرات الأسرى، ولكن الجنود الألمان، رأوا أنهم أولى من البولنديين للقيام بها.

وفي معسكر الأسرى «أومان» علق الأسرى على المشانق، وكانت فرق الأسرى بقيادة الألمان تقوم بجمع الموتى من رفاقهم بجوار الحائط كما يجمعون الحطب. لقد كان الأسرى يرقدون في الوحل. وهو منظر يتفوق على جحيم «دانتي» الشاعر الإيطالي الشهير. إن الرصاصات الألمانية لم تكن تفرق بين محارب أومسالم. لقد كانت تنطلق في وجوه الفتيات الأوكرانيات اللائي كن يلقين الخبز إلى الأسرى الروس والتتر..وقتلت امرأة حاملاً!!

ويلحّ صـادق طوران على ذكر مشـاهد قتل الأسـرى اليهود في أكثر من موضع، مع أن بعض اليهود كانوا يعملون جواسـيس للألمان على الأسـرى..ولم يسـلم هؤلاء الجواسيس أيضاً من القتل.

ولم يتوقف الصـراع الوحشي بين الألمان والأسـرى، ولكنه امتد إلى الأسرى أنفسهم، الذين كانوا يتقاتلون فيما بينهم على أشياء صغيرة ولأسباب بسيطة، بل كانوا يتصارعون مع الموتى من رفاقهم، مع أن حالتهم بصفة عامة كانت تدعو إلى الرثاء والحزن والأسى. لقد عضّـهم الـبرد، وآذاهم القمل نتيجة القذارة، بل إن القمل- كما يقول صـادق- كان يهرب من على أقفيتهم السوداء وشعرهم القذر!

ويلحظ القارئ أن البطل صوّر العلاقة بين الأسرى المسلمين التتر على نحو من الإيثار الفريد، حيث كان بعضهم يعطي زملاءه، قبل أن يأخذ لنفسه، ويتطوّع من أجل مساعدتهم مستهينا بالصعاب التي تقابله، دون أن يجد في ذلك انتقاصًا منه.

إن صـادق طوران يحيك مأساة الأسر ممزوجة بأسر بلاده ومأساتها. إنها لا تنفصل عـن وجدانه لحظة، حتى في أشـد لحظات المعاناة قسـوة، تطل من بـين الأحداث، وتقف أمامـه وجهـاً لوجه، وتتعمق لديه في قلب المحنة ضـرورة الحرب من أجـل الحياة..حياة وطنه وشعبه وأمته المظلومة.

لقد اضـطر بعد صـراع عنيف في داخله على الانضـمام لجيش التركستان الذي كوّنه الألمان من الأسـرى لمحاربة الروس، ولكنه بعد حين استطاع الهروب إلى الحلفاء، ثم إلى إيطاليا، بعد أن اكتشف الوجوه الحقيقية للقوى المتحاربة والخصائص الذاتية لشعوبها.

فالشـعب الروسـي يجثو على ركبتيه سـريعا أمام قوة يحس أنهـا تفوقه. ولم يتحدث أحد من الأسـرى الروس الذين قابلهم صـادق طوال أسبوعين عن بلاده التي تتحرق ألما، وتعرضت للاحتلال، بالعكس كانوا يبدون أنهم على استعداد لأن يحبوا ذلك الذي غلبهم وسحقهم!

الألمـان أيضـا ديّوثـون، وقد صـور صـادق الفظائـع التي صـنعوها، والوحشـية التي مارسوها.

أمـا الأمريـكان، فهم مخادعـون، لا خلاق لهم ولا أمان. وكان صـادق طوران يشـك في طبيبـه النفسـي الذي يعالجه مـن روما، ويرى أنـه لو عرف أنه من القرم، فسـيخبر الأمريـكان، الذين يسـلّمونه بدورهم إلى الروس. وكانت الوقائع الحيـة تؤكد على غدر الأمريكان دائما.

ففي العاشر من مايو ١٩٤٥، عند الصباح، قام الأمريكان بشحن الأسرى في سيارات نقل مكتظة في طريق قرب الحدود السويسـرية، ونقلوهم إلى المعسـكر الذي تتماوج على أبوابه الأعلام الحمراء. وأحسّ صـادق، وزملاؤه بالطبع، وكأن لكمة سـدّدت إلى حلقه، كانوا في الطريق يسـمعون أشياء سـيئة عن الأمريكان ولم يكونوا يصدقونها. أما في هذه اللحظة فإن الأعلام البلشـفية تموج على الأبواب جنبا إلى جنب مع الأعلام الأمريكية.. وكان هذا أكبر مصـدر للخوف في حياة الأسـرى، لم يفهمه الأمريكان وإن فهمه الأسرى الذين كانوا يعلمون أنهم سيذهبون إلى الموت لدى الروس البلاشفة! وهو ما دفع الأسرى إلى الثـورة وتمزيق الأعلام الحمـراء- والهروب إلى الجبال حتى حدود إيطاليا، والعيش في خوف مجهول الأسباب!

لا ريب أن شخصية صادق طوران مثلت أحداث فترة عصيبة شهدها وعايشها وتعذب بهـا، ولكن الأهم من كل ذلك، رصـده لعملية استئصـال الإسـلام من بـلاده، وتفريقها من شـعبها، وتشـريدهم بالموت والجوع والنفي، وسأشـير إلى بعض ملامح هذه العملية فيما بعد، لأتوقف في إشـارة سريعة عند بعض الشخصيات التي شاركت في صنع أحداث الرواية..

إننا لا ننسـى على امتداد الرواية شخصـية «القومسير شيشكوف» وهو موجه سياسي بالدرجـة الأولى في الجيش الأحمر، ومهمتـه هي التحدث عن تعاليم الماركسـية وانهيار الرأسمالية الغربية، وانتظار البروليتاريا المسحوقة في كل أنحاء العالم، الخلاص والنجدة من الاتحاد السوفياتي والجيش الأحمر.

لقد اهتم شيشـكوف بتعقب صـادق طوران، وصديقه سـليمان خطوة خطوة، وكان له مقصـد خفي لم يعلن عنه، ولكنه دائما كان قريبا منهما في الحرب والأسـر على السواء، حتى فترة الاسـتعداد للهروب من المعسـكر الأمريكي، بعد تمزيق الأعلام الحمراء، كان

شيشكوف يهدّد ويتوعد التتار المتمردين كما توعد من قبل الجنرال ماكسيمنكو الذي انضم بمئة وخمسين جنديا روسيا إلى الألمان بدفنه تحت الأرض، أو تعليقه مع الآخرين في الميادين العامة ليلقوا جزاءهم!

ستقابلنا شخصيات عديدة في الرواية من الروس والتتر، ويلاحظ أن معظم هذه الشخصيات بسيطة في تفكيرها وسلوكها، تتحرك بفطرتها بعيداً عن الخبث الشيوعي أو المكر البلشفي، إنهم يستجيبون لفطرتهم وعقولهم وليس لتوجيه القماسرة أو القادة الشيوعيين. هذا هوالجادي (الرقيب) واسيليا ينجو من الدبابة المحترقة، فيقول: «لقد أنقذني الله يا سيدي القائد. هل ينجو الإنسان وهو وسط النار؟ هأنذا قد نجوت. بعد ذلك سأكسر دماغ من يقول: إن الله ليس موجوداً»[1].

وهناك العديد من الشخصيات التترية البسيطة نماذج حيّة وطيبة، منها شخصية المجند «آوصقال» إنه لا يعترف بالجبهة ولا بغيرها. إنه يقيم الصلاة بمجرد سنوح الفرصة، إنه أوزبكي من بخارى، رجل حنون، يصلي بزملائه بين الأدغال الذين يملؤون بأصواتهم الهامسة قلب صادق طوران بأشياء يحسّها فقط، وإن كان لا يستطيع فهمها ولا شرحها..إن اسم الله الذي يصدر من أفواه ثمانية جنود أو عشرة من هؤلاء الأوزبك في نفس واحد وهم يصلون بين الأدغال، يبيّن لماذا سيعيش وفي أي سبيل سيحارب!

ومن أقوال (آوصقال): «سر وأنت تذكر اسم الله. سلم نفسك لله، ولا تخف بعد ذلك. فالله يحميك، ولا شك في هذا...»[2].

إن رواية «السنوات الرهيبة» مليئة بمثل هذه الشخصيات البسيطة الحية، التي تلقى مصيرها غالبا بالموت في الميدان أو في زحف الأسرى في هجومهم، بسبب القهر والتعذيب والقسوة والصراع الوحشي[3].

---

(١) الرواية، ص ٧٩.

(٢) الرواية، ص ١١٢.

(٣) هناك شخصية نسائية يشير إليها "صادق طوران" باسم "ماريا"، ولا نعرف طبيعة علاقته بها، ويبدو ارتباطه بها قويّاً، فهو يذكرها في تضاعيف روايته بصورة عابرة، وكأنّ القارئ يعرفها، ولكننا نعلم أنها متوفاة وأن ذكراها تلحّ عليه بصورة قاهرة، وأن موتها كان راحة لها من العذاب الرهيب الذي عانته!

أما شخصيات الأقوياء القاهرين سواء كانوا الروس بالنسبة لأهل القرم والترك عامة، أم الألمان بالنسبة للروس والقوميات الخاضعة لهم، فهم في كل الأحوال، نموذج لبشاعة الإنسانية أو المكر الخبيث الذي لا يتورع عن فعل أي شيء لتحقيق مصالحه.. ويكفينا في هذا المجال شخصية الجنرال «شيشكوف» الذي سبقت الإشارة إليه.

-٥-

من معالم استئصال الإسلام في القرم، ما تحدث عنه صادق طوران كثيرا، وأكتفي بقضية واحدة لعدم الإطالة، وهي قصة «المئذنة»، وسأترك كلماته ترويها وهو صبي صغير يتلقى تعليمه في المدرسة التي طرد منها، وأُخذت معلمته «صفية» إلى حيث لا يعلم أحد، مع نصف أهل قريته: «كنت كلما نظرت إلى المئذنة أحسست بالإيمان يغمرني، وكانت الحياة تملأ المنازل المجاورة لها. لقد كنت جزءاً من تلك المئذنة، جزءاً منها بروحي، رغم أن دروسنا كانت كلها ضد الدين، ورغم أنهم كانوا يعلموننا في المدرسة الإلحاد والفكر الشيوعي، كان الإسلام موجودا في كل بيت وفي كل سطح، وفي كل عتبة منزل، يربط كل الناس والحياة، بل وكل الوجود بتلك المئذنة. هذا ما كان يخيّل إليّ.

كان ذلك العام الأخير في المدرسة والامتحانات تقترب. وكنت اتفقت مع زميلي سليمان على أن ندخل مدرسة الطب في مدينة آق مسجد، إذا نجحنا في الامتحان، وبمعنى أصحّ أنني ضغطت على سليمان ليوافق على هذا القرار، لأنه كان يود دخول مدرسة الضباط، لكن صداقتي المخلصة لسليمان انتصرت على رغبته هذه، أذكر جيداً أننا كنا ذات يوم دراسي وبالذات في حصة الجبر أن دق الجرس فإذا بمقاعد التلاميذ تطقطق، وكذلك أدراجها. خرج التلاميذ واتجهوا إلى الممر، ورويداً رويداً أخذ الفصل يخلو من التلاميذ، ولم يبق أحد في داخله إلا أنا. وبجانب النافذة، وفي هدوء عميق، كنت أنظر إلى مئذنة جامع طوقال، وإذا بصوت جانبي يقول:

- صادق! صادق!

فالتفت، فإذا بسليمان:

- ماذا هناك؟ وإلى من تنظر في الخارج؟!

- لا أحد. الشمس محرقة لدرجة أن الشوارع خلت من الناس.

- لا، إن أحدهم هناك.

- أبدا؟!

- إلى مئذنة مسجد طوقال.

- إن المسجد «مشمع» بالشمع الأحمر منذ أشهر، كما أن أبواب المسجد مغلقة بالمسامير.

- قال: انظر جيداً.

نظرت هناك بعيدا..نحو مئذنة مسجد طوقال، وهو بين خضرة الحديقة حيث تمتد المئذنة نحو السماء كإبرة دقيقة الصنع. كان سليمان محقّاً. كان هناك شخصان. وبعد ثلاث دقائق تقريباً، اختفيا عن الأنظار. التفت إلى سليمان، وقلت له:

- هذه أول مرة أرى إنساناً في مآذن مدينة آق مسجد، إن الأذان مازال يتردد في القرى حتى الآن، لكن في آق مسجد..!؟

قال سليمان بصوت غليظ، وقبل أن أتم كلامي:

- لا عليك!..إنهما لم يصعدا المئذنة ليؤذنا!

- إذاً فلم؟!

- إنهم سيهدمون المسجد.... »[1].

كان الروس يربطون المئذنة بسلاسل حديدية ليهدموها مع المسجد، وتهاوت المئذنة. اختفت مئذنة مسجد طوقال، وبانهيارها انهارت أشياء كثيرة، وتحولت أماكن العبادة إلى أرض تدوسها نعال الأعداء!

ويفكر صادق: «ينبغي لنا أن ننظر إلى هذا دون خوف- كما يقول والدك- أعداؤنا هم الذين عليهم أن يخافوا. أما كيف؟ إن ظلمهم لنا دليل خوفهم منا...مئة وخمسون عاماً، وهم يعملون للقضاء على الأتراك القرم، ولكنهم يخافون من الأقلية الباقية!».

(١) الرواية، ص ٣٠-٣٢.

إن البحر لا يتجزأ. نحن أتراك- تتار، وكما يعرف قلبك هذا، فقلوب جميع الباشقور والقرغيز والقوازق تعرف هذا. تحرّك يا صادق بحركة قلبك، ولا تنكب على أطماع الدنيا الفارغة...[1].

ونلحظ من هذا السياق أن الأتراك التتار يضمون معظم القوميات التي حكمتها روسيا القيصرية، ثم روسيا البلشفية، ويندرج تحت عنوان الأتراك/ التتار كل من: الجراكسة، والتركمان، والقازاق، والأوزبك، والآذر، والقرا قالباق، والشيشان، والأويغور، والقاباروي، والباشقير، والقرغيز.

ولا ريب أن قصة مئذنة مسجد طوقال التي مرّت، تشير إلى طبيعة الصراع الضاري بين القوة الاستعمارية في نزوعها لاستئصال كل أثر للإسلام في القرم وغيرها، وبين المسلمين المستضعفين الذين صاروا لا يملكون من أمرهم شيئاً. فالمئذنة تشير إلى استئصال العقيدة ووسائل التعبير عنها، وما يرمز إليها، ولم تكن مجرد منارة يقف عليها المؤذن لينادي المسلمين لأداء الصلاة! لقد كانت المئذنة كما يرى صادق طوران جزءاً من روحه، مع أن القرم يدرّسون الإلحاد في المدارس، ويمسحون الدين من النفوس والرؤوس بممحاة!

صورة أخرى من صور الاستئصال تتمثل في محو لغة القرم، حرفا وشكلا، معنى ومبنى، لم يتركها المستعمرون دون تغيير، وكانت الكارثة الثانية التي تعادل كارثة محو الدين. لقد اغتالوا اللغة التترية. لقد حلّت الحروف الحمراء (الروسية) محل الحروف اللاتينية في كل مدارس التتار وصحفهم في سياق حملة (الترويس) أي جعل التتار (روساً) لأنهم يخافون منهم.

وتثير قضية اللغة بعض المفارقات، خاصة لدى عامة التتار الذين لا يعنيهم إلا ما يتعلق بحياتهم المعيشية، ومطالبهم البيولوجية، وتنفيذ ما يلقى إليهم.. فالذي يهم الجندي التتري الجاهل في الجيش الأحمر، هو: اقتل..يقتل، احرق..يحرق. إنه لا يعرف إلا الأوامر، والأوامر يصدرها الروس. إنه لا يعرف الخط ولا يفهم فن السياسة! مثل هذا الجندي التتري الذي

(١) الرواية،، ص ٣٢-٣٥.

يزيّن صدره ميداليتان واحدة ميدالية العلم الأحمر، والأخرى ميدالية النجم الأحمر، ومع ذلك فهذا الجندي «كريم» الذي لا يعنيه أمر اللغة، تغلب عليه العاطفة التترية تجاه «صادق طوران».. فلا يطلق عليه النار مع أنه لم يقل كلمة «سر الليل» وذلك لأنه خاطبه بلغته التترية. إن حب الوطن واللغة التترية- مع كل الظروف- قوتان تدفعان إلى الترابط؛ وهو ما جسده ترابط التتار في فصيلة «صادق طوران» حيث بلغ عددهم اثني عشر تتاريا، كانوا يشعرون بإحساس الجسد الواحد، وإحساس الابن في الأسرة الواحدة.

لقد رصد صادق طوران مأساة القرم واستئصال الشعب من أرضه وديارة، مع استئصال عقيدته ولغته في سياق سردي عفوي، لا يهتف ولا يصرخ، ولكنه يتسلّل إلى القلب فيثير الأسى والشجن على شعب مسلم راح ضحية الغدر والقهر، مثله في ذلك الشعب الفلسطيني الشريد!

-٦-

نلحظ على امتداد الرواية أن الكاتب يوظف العديد من العناصر الفنية، لإبراز الهويّة الإسلامية للتتار القرميين، وإثراء تجربة البطل الإنسانية في مواجهة الأحداث التي مرّ بها، مثل الدعاء والأناشيد والأمثال والحوار، فضلا عن التصوير أو اعتماد الصور المجازية القائمة على التشبيه بصورة عامة.

وفي ثنايا الرواية نجد اللجوء إلى الدعاء من البطل وأسرته والمنتمين إلى القرم، إحدى الوسائل المهمّة التي تمثل أفكارهم وسلوكياتهم، على أساس أن الله وحده هو الذي يملك إنقاذهم مما هم فيه من ضيق وبؤس، بعد أن فقدوا كل عناصر القوة إلا عنصر الإيمان. إن بعضهم يدعو للآخر، أو يطلب من الآخر أن يدعو له، مثلما رأينا في اقتباس سابق من الرواية، حيث كان «صادق طوران» ينظر وهو في القطار إلى أرضه السليبة، وهو يغادرها لآخر مرة:

« يا رب لا تحرمنا من هذه الأرض، نريد أن نبقى فيها، ونعيش فيها، حتى لو نحيا جياعا عراة، حتى إذا متنا أيضاً، فلنمت في هذه الأرض. إنها وطني يا ربنا...».

وتأمل الدعاء تجده يئن بكثير من الشجن، الذي ينضح من كلماته خوفاً على الأرض والوطن، التي صارت جزءاً من العقيدة والإيمان «إنها وطني يا ربنا...».

لقد سلب الروس أهل القرم كل شيء، فلم يعد لهم إلا الدعاء يرسخ إيمانهم بدينهم ووطنهم، ويمنحهم الأمل في المستقبل، مع كل عوامل الإحباط والإخفاق الأرضية التي تنفي هذا الأمل!

«إني بقلبي وفكري متجه إلى الله خالق كل شيء، على وجه الأرض: خالق الحيوانات وخالق الجمادات. لا تتخل عني يا رب! اللهم احفظني!»[1].

إن صادق طوران يواجه المحنة في أثناء القتال وبعده بالدعاء واللجوء إلى الله، ويقدم حيثيات هذا اللجوء في سياق الدعاء، ولعل هذا هو الذي كان يمنحه القوة والسعادة في سنوات الحرب حتى في الأيام التي ركز فيها الموت عينيه داخل عين صادق..بل إن الأمر يتعدى صادقا والمؤمنين من الجنود التتار الذين كثرت ذنوبهم، فهم ينتظرون فرصة، ويستعينون عليها بالدعاء.

وفي الرواية نجد تضمينا بالشعر والأناشيد، وهو تضمين يمنح الرواية- إن صحّ التعبير- عمقاً معنوياً يؤكد ما يرمي إليه الكاتب: تأمل مثلا هذا النشيد الذي ينشده الجنود التتار بعد أدائهم الصلاة في الأدغال وهو يشي بحبهم العميق لبلادهم السليبة:

« ماذا حدث لك يا تركستان الجميلة

ذبلت الورود في غير زمان الذبول

لا أعلم لماذا لا تغنّي الطيور في حدائقك؟

آه... في حدائقك!»

إنه نشيد بسيط، ولكنه يجسّد مأساة الأمة المظلومة التي ذبلت فيها الورود أيام الازدهار، وتوقفت فيها الطيور عن الغناء في الحدائق، مع أن غناءها- كما يفترض- لا يتوقف أبداً. ولكن العدو- بمفهوم مخالفة السياق- هو الذي أذبل الزهور وأسكت الطيور.

إن الأمثال أحيانا تلخص موقفا إنسانيا كاملا، فهذا التتري يسعى إلى صادق طوران الذي يكتب تصريحات الأسرى، ويلحّ عليه أن يكتب له تصريحا، فهو كبير السنّ ضعيف

(١) الرواية، ص ٦٩.

obeikandl.com

الجسم، يعاني ويتعذّب، ويمثّل هذا الأمر مأزقاً لصادق الذي يتردّد في تحقيق المطلوب لأن اسم التتري غير موجود في القوائم التي سيطلق سراح أصحابها...ونجد التتري يقنعه بما يريد بمثل قوله: « طالب الحاجة له وجه واحد أسود، والذي لا يعطيه له وجه دائم سواده»!

إن الرواية تحفل بالحوار الطبيعي القصير غالبا، وقد رأينا نموذجا منه في قصة هدم مئذنة مسجد طوقال. إنه حوار كاشف عن طبيعة الاهتمامات التي تشغل الشخصيات، وتفكيرها وتصوراتها تجاه ما يجري حولها، وما تتوقعه... وبصفة عامة فإن الحوار يقيم أعمدة قوية مهمّة في البناء الروائي تضمن للرواية جانباً أساسياً في عفويتها وتلقائيتها.

أما المجاز، أو الصورة بصفة عامة، فهي تمنح المعاني أبعاداً جمالية رقيقة تؤثر في نفس المتلقي، وتثير انتباهه لما يريد السارد توصيله أو التعبير عنه، وغالباً ما يتكئ المجاز على التشبيه الحيّ، المنتزع من البيئة والمجتمع، وسأكتفي بإيراد بعض النماذج القليلة الدالة.

يكنّي عن حالة القلق التي يعيشها فيقول عن نفسه: « إن صادقا رجل ملّ دنياه، وخاف البشر»، أو يصوّر حالته عند سماعه نبأ القبض على والده، وهو ينتظره مع أسرته لتناول العشاء فيقول: «تحولت اللقمة الوحيدة التي تناولتها... إلى سم زعاف في أمعائي»،

وعندما يصاب في المعارك بأول جرح في وجهه يفكّر قائلا: «إن هذا أول قبلة من قبلات الحرب»، وهو تعبير ساخر كما نرى.

ويعبرّ شيشكوف عن غضبه بسبب الهزيمة التي تلقاها الجيش في برفومايسك فيقول: «برفومايسك تحترق. والكلاب في كل مكان».

ويصوّر منظر الأسرى وهم يستمعون إلى أخبار التمدد في أوكرانيا قائلا عنهم: «ينظرون إلى روسيا التي تتلوى وتتقلّص تحت الاحتلال الألماني، كما ينظرون إلى شيء ميت عديم الجدوى».

ويصوّر بعض الفروق بين المسلم والكافر فيقول: « معدة الكافر ضخمة وسيئة مثل معدة الخنزير. لا تفرق بين الحلال وبين الحرام. تأكل ما تجده. أليس لهذا السبب يكون شكل الكافر مثل الخنزير؟ أما أنت فمسلم...».

و يصور الرجال الأسرى في البرد وعناءهم من القذارة: «الشتاء أيضا ظالم كالألمان.. والقمل أكثر إيذاء من البرد». ويصوّر شدة القذارة التي يعيشها الأسرى: « حتى إن القمل يهرب من على أقفيتهم السوداء وشعرهم القذر!...» [1].

إن رواية السنوات الرهيبة» اسم على مسمى فهي رهيبة حقا على بطلها وأهله وشعبه، وهي رهيبة على الإنسانية جمعاء، وقد تجلّت فيها وحشية الإنسان القوي ضد أخيه الإنسان الضعيف. وكان كاتب الرواية على مستوى الضمير والمسؤولية، حيث صور مأساة بلاده، ورغبة أهل القرم في التحرر، والمقاومة لتنظيف بلادهم من الغزاة الكفار... والإشارة إلى بطولاتهم ومواقفهم الإنسانية بما فيها من نبل وشرف، وضعف ويأس. لقد أراد أن يخلد ذكرى هؤلاء الذين ضحوا في سبيل القرم، وتركوا آثاراً جميلة خلفهم..وقد نجح في ذلك.

ولم أشأ الإشارة إلى بعض الوسائل الفنية الأخرى مثل القصص الداخلية التي تضمنتها الرواية، مثل قصة "أرسلان بن عظمتْ"، والأحلام، مثل حلم "وادي الموت"، والرسائل، مثل رسائل محمد إلى صادق، لأن تناولها قد يطيل الموضوع إطالة لا يحتملها القارئ الكريم.

(١) السابق نفسه.

obeikandl.com